السلطان عنه حديثاً ثم تهيأ للسفر فلمته على عدم وداع السلطان
ومواجهته فقال لا غرض لي بشيء منه سوى رؤيته وقد حصلت
وسافر ولما بلغ السلطان سفره غضب ولامني كثيراً وقال كيف
يطرق مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير احسان يمسه
فكتبت الى قاضي دمشق وله بما حصل من السلطان من شدة
التأذي فلم أشعر الا وقد جائني ليلا فرحب به السلطان
وأمسكه أياماً ونوع له المعروف والخلع وأشياء يحملها الى
عياله وتلامذته

الفصل الثامن عشر في رقة قلبه واجماع المسلمين على علو شأنه وحسن سيرته

ثم انه قد مثل مرة بين يديه افرنجي أسير خائف مرعوب فسأله
السلطان عن سبب خوفه فأنطقه الله أني كنت أخاف من قبل
أن أرى هذا الوجه وبعد أن رأيته أيقنت بكل خير فرق
له وأطلقه وأكرمه وجاء بعض عسكره اليه بامرأة من الافرنج
تضرب صدرها ضرباً متداركاً فسألها الترجمان عن سبب
ذلك فقالت ان لصوص المسلمين سرقوا البارحة ابنتي
من خيمتي وبت أستغيث ولقد دلوني عليك وانك أرحم
من غيرك ولا أعرف ابنتي الا منك فرق ودمعت عيناه
وأمر بحضورها وأن يدفعوا لمن اشتراها ثمنها فلما أحضرت
ووقع بصرها عليها خرت الى الأرض تعفر وجهها بالتراب
وهي ترفع طرفها الى السماء ولا نعلم ما تقول فبكى رحمه الله
وبكى الحاضرون ولقد أبدل النواب كيسين من الذهب المصري
بكيسين من الفلوس فلم يجاز النواب الا بأن صرفهم وكان
حافظاً

حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم حسن المعاشرة يستفيد من محاضره
ويسأل ويتفقد من يعرفهم ولا يرى شخصاً الا ويرق له ولا يتيماً
الا أحسن اليه وسد خلته والحاصل انه لقد أجمع المؤرخون على حسن
سيرته وكمال أخلاقه وعدله ووفائه وعفته وديانته ورحمته
ولا سيما مؤرخوا الأوربيين فانهم ترجموه ترجمة تليق به وذكروا
مسائل وحوادث تدل على علو شأنه ومروءته ورأفته وعددوا
مناقب له أجراها معهم في الحروب الصليبية كاعطائه الهدنة لهم
حين نزل بهم المرض وتطبيبه لملكهم مع غاية النصح لهم والصدق
وتطبيب أطبائه لعساكرهم بغاية النصح حتى ان الأوربيين يقدمونه
على مشاهير قوادهم وأمرائهم ويذكرونه بغاية الاحترام والتعظيم
فمن أراد أن يقف على تفصيل فضائله فليرجع الى كتبهم يظهر
له مكانة المذكور ومنزلته وكانت مدة ملكه بالديار المصرية نحو
أربع وعشرين سنة وفي الديار الشامية نحو تسع عشرة سنة وهو
أول الملوك بالديار المصرية بعد انقراض الدولة الفاطمية.

الفصل التاسع عشر في مخلفاته وتقسيم ممالكه على أولاده وأولاد اخوته
وبني عمه).

ثم ان السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى لم يترك في خزانته سوى
ستة وثلاثين درهماً ناصرية ودينار واحد لا غير وهذا من
سلطان يملك الديار المصرية والشامية واليمنية والموصلية دليل
قاطع على فرط كرمه وعدم حرصه وتمسكه بالعرض الفاني ولم يخلف
داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا فرساً يركبه الا وهو موهوب
أو موعود به وكان محافظاً على صلاة الجماعة ويكثر من سماع الحديث

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)